

انتصار محمد بن عبدالله

للأستاذ سيد قطب

هذا مقال للاستاذ « سيد قطب » ليس جديدا من الناحية الزمنية ، ولكنه جديد كل الجدة في مدلولاته ومرامييه ، لما فيه من دعوة صريحة واعية لان ترجيم الامة مبادئها ونظرياتها - اذا شئت النصر - الى أعمال وسواك كما فعل محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه من قبل .
ولعل في نشر هذا الكلام اليوم حيث يعيش المسلمون في ظلال ذكرى مولده عليه الصلاة والسلام ما يحرك القلوب فتخشع ، ويوقظ الهمم فتقوى على متابعة الطريق .
التحرير

ان انطلاق ملايين الاصوات ، في مشارق الارض ومفاريها تردد آناء الليل واطراف النهار : لا اله الا الله محمد رسول الله . .
ان انطلاق هذه الاصوات طوال اربعة عشر قرنا ، لا تصمت ولا تخفت ، ولا تموت . تتبدل الدول ، وتتغير الاحوال ، ولا تتبدل الصيحة الخالدة ، التي انطبعت في ضمير الزمان .
ان انطلاق هذه الاصوات هو الدليل الحي الناطق على انتصار محمد بن عبد الله .

انه ليس انتصارا في غزوة ، ولا انتصارا في معركة . انه ليس فتح مكة ، ولا ضم جزيرة العرب ، ولا اخضاع مملكتي كسرى وقيصر . انما هو النصر الكوني الذي يدخل في بنية الحياة ، ويغير مجرى التاريخ ، ويصرف اقدار العالم ، وينتطبع في ضمير الزمان .

انه النصر الذي لا يذهب به ضعف طارئ على الامة المسلمة في وقت من الاوقات ، ولا يفض من قيمته بروز مذاهب جديدة وفلسفات ، ولا يطفىء من نوره غلبة فريق على فريق في رقعة من الارض . لان جذوره ضاربة في اعماق الكون ، متأصلة في ضمير البشر ، ذاهبة في مسارب

الحياة . انه النصر الذي يحمل دليله في ذاته لا يحتاج الى دليل او برهان .
فلنحاول اذن ان ندرك اسبابه ووسائله . لنحاول نحن الوسائل ولنأخذ
اليوم بالاسباب .

انه ما من شك ان الله كان يريد لمحمد بن عبد الله أن ينتصر . وكان
يريد لهذا الدين القويم أن يسيطر . ولكن الله لم يرد أن يجعل النصر هينا
لينا سهلا ميسورا . ولم يرد أن يجعله معجزة لا يد فيها للجهد البشري ولا
وسيلة . انما جعله ثمرة طبيعية لجهد الرسول - صلى الله عليه وسلم -
وجهاده . ونتيجة منطقية لتضحياته وتضحيات اصحابه .

فمن شاء أن يعرف كيف انتصر الرسول ، وكيف انتصر الاسلام ،
فليدرس ذلك في شخصه وسلوكه وسيرته وجهاده ليعلم أن طريق النصر
مرسوم ، وأن وسائله حاضرة ، وأن اسبابه قائمة وأن على من أراد النصر
في أي زمان وفي أي مكان ، أن يجعل قدوته في الرسول نفسه عليه الصلاة
والسلام .

لقد انتصر محمد بن عبد الله ، وكان لنصره مقومات ثلاثة ، فيها تكن
سائر المقومات .

انتصر محمد بن عبد الله يوم أن جاء وجوه قريش يحاجون عمه أبا طالب
يطلبون اليه أن يعرض على ابن اخيه الذي ألقاهم في دينهم ، وأزعجهم
في تقاليدهم ، وهزمهم في معتقداتهم أن يسكت عنهم وعن آلهتهم وله في
ذلك ما يشاء : ان كان يريد مالا أعطوه وان كان يريد سيادة سودوه وله
فيهم بعد ذلك ما يريد .

لقد انتصر محمد بن عبد الله ، وهو يلقي في اسماءهم واسماع الزمان
بقولته الخالدة المنبثقة من ينباع الايمان . « والله يا عم لو وضعوا الشمس
في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الامر ما فعلت أو أهلك
دونه » .

يا الله ! يا للروعة المزلزلة ، يا للصورة الكونية الهائلة : لو وضعوا
الشمس في يميني والقمر في يساري . انها صورة منتزعة من ضمير
الكون لا من خيال انسان . انها الصورة التي يبعثها الايمان المطلق من
قرارة الوجدان .

لقد انتصر يومها محمد بن عبد الله ، ولقد هز وجدان قريش هزة لم تتماسك بعدها ابدا ، انه الايمان ، القوة التي لا يغلبها شيء في الارض متى استقرت في وجدان انسان .

وانتصر محمد بن عبد الله يوم صنع أصحابه - عليهم رضوان الله - صوراً حية من ايمانه تاكل الطعام وتمشي في الاسواق . يوم صاغ من كل منهم قرآنا حيا يدب على الارض ، يوم جعل من كل فرد انموذجا مجسما للاسلام ، يراه الناس فيرون الاسلام .

ان النصوص وحدها لا تصنع شيئا ، وان المصحف وحده لا يعمل حتى يكون رجلا ، وان المبادئ وحدها لا تعيش الا أن تكون سلوكا .

ومن ثم جعل محمد هدفه الاول ان يصنع رجلا لا ان يلقي مواظ . وان يصوغ ضمائر لا أن يدبج خطبا . وأن يبنى أمة لا أن يقيم فلسفة ، اما الفكرة ذاتها فقد تكفل بها القرآن الكريم وكان عمل محمد - صلى الله عليه وسلم - أن يحول الفكرة المجردة الى رجال تلمسهم الايدي وتراهم العيون .

فلما انطلق هؤلاء الرجال في مشارق الارض ومغاربها . رأى الناس فيهم خلقا جديدا لا عهد للبشرية به ، لانهم كانوا ترجمة حية لفكرة لا عهد للبشرية بها . عتدند آمن الناس بالفكرة لانهم آمنوا بالرجل الذي تتمثل فيه . واندفعوا يحققونها في ذواتهم بالقدوة ، فيسلكون نفس الطريق .

وما كانت الافكار المجردة وحدها لتعيش ، وان عاشت فما كان لها ان تدفع بالبشرية خطوة واحدة الى الامام . كل فكرة عاشت قد تمثلت بشرا سويا . وكل فكرة عملت قد تحولت حركة انسانية .

ولقد انتصر محمد بن عبد الله يوم صاغ من فكرة الاسلام شخوصا ، وحول ايمانهم بالاسلام عملا ، وطبع من المصحف عشرات من النسخ ثم مئات والوفاء . ولكنه لم يطبعها بالمداد على صحائف من الورق ، انما طبعها بالنور على صحائف من القلوب . وأطلقها تعامل الناس وتأخذ منهم وتعطي وتقول بالفعل والعمل ما هو الاسلام الذي جاء به محمد بن عبد الله من عند الله .

واخرا فقد انتصر محمد بن عبد الله يوم ان جعل لشريعة الاسلام
علما يحكم الحياة ، ويصرف المجتمع ، وينظم علاقات الناس ، ويسيطر
على اقدار الرجال والاشياء سواء .

ان الاسلام عقيدة تنبثق منها شريعة ، فيقوم على هذه الشريعة نظام ،
ومن العقيدة والشريعة والنظام تتكون شجرة الاسلام ، كما تتكون كل
شجرة . من جذر وساق وثمره .

فلا ساق ولا ثمار بلا جذور ضاربة في الاعماق . ولا قيمة لجذور
لا تنبت ساقا . ولا جدوى في ساق لا تعطي اكلها للحياة .

لذلك حرص الاسلام على ان يكون الحكم لشريعته في الحياة : « ومن
له يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » .

والذلك اختفت من الاسلام اسطورة فصل الدين عن الدولة لانه لا دولة
لا دين ، ولا دين بلا شريعة ونظام .

ومنذ اليوم الاول لبناء الدولة الاسلامية كانت شريعة الاسلام هي التي
بناها هذه الدولة . وكان صاحب الشريعة هو الذي يتولاها . ولقد بدأت
الدولة الاسلامية منذ ان كان المسلمون حفنة من الناس ، يملكون ان يدفعوا
من انفسهم العدوان ، وان يحموا انفسهم من الفتنة عن دين الله ، وان
يرزوا في رقعة من الارض يظلها علم الاسلام .

عندئذ تحول الاسلام الى نظام اجتماعي ، ينظم العلاقات بين المسلمين .
النظام دولي يعاملون على اساسه سواهم من الناس .

مع انساح الاسلام في جنبات الارض يحمل معه حيثما حل عقيدته
وشريعته ونظامه . فمن شاء ان يدخل في عقيدته دخل ، ومن لم يشأ
فانه « لا اكراه في الدين » ولكن شريعة الاسلام ونظامه يظلان كل ارض
دخل اليها الاسلام ، فيجد الناس فيهما عدلا لم تعرفه البشرية من قبل
، مرا له تطعمه البشرية من قبل . وعندئذ يدخل الناس في دين الله افواجا ،
وعندئذ يحق وعد الله لرسوله .

« اذا جاء نصر الله والفتح ، ورايت الناس يدخلون في دين الله افواجا ،
فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا » .